صفحة ذهبية من تاريخ لبنانه

البطريرك اللبناني
الياس بطرس الحويك

بقلم المحوري منصور عواد عوّاد

٥

موقف البطريرك من ربه (تابع)

موقفه من ربه في حياته الخصوصية

العيشة المشتركة

عنوان الحياة الفردية في المرء اعماله في حياته العمومية سواء أكان رجل دين او رجل سياسة ، وفي هذا يصدق المثل القائل : « كل اناء بما فيه ينضح » أجل ان الوظائف الكبيرة في الدنيا والدين تظهر ما يبطن اصحابها من فضائل وعيوب . وقد اظهرت حياة البطريرك الحويك العمومية ما أشرت اليه في حياته الخصوصية من الفضائل المسيحية الراسخة ومن التقوى الحقيقية .

فمنذ تبوأ السدة البطريركية اوجب الحياة المشتركة في كرسيه على نفسه وعلى حاشيته . فكان امام الجميع في المحافظة عليها اذ كان متقيداً بنظام واحد للكل لا يحيد عنه قيد شعرة في الرقاد وفي النهوض ، في الصلاة وفي الاكل ، في القعود وفي القيام ، في العمل وفي الراحة . فكان يومه مرتباً لكل ساعة منه عمل خاص لا يتخلف عنه الا لعذر مشروع . وما كان يعذر نفسه عن الحياة المشتركة الا متى اقعده المرض ، بل كان يجهد نفسه في ذلك اكثر مما تقدر عليه دون ان يبدو منه ما يشعر بعجزه عن القيام بتلك النوافل التي جعلها على ذاته وعلى حاشيته فرضاً . وتذكر حاشيته انه مرض مرضه الاخير في تسعوية الميلاد ، ومع انه كان في اقصى درجات الشيخوخة ، وفي ايام البرد الشديد ، ومع انه كان مريضاً منذ ايام والموت يدب في عروقه وعظامه وهو لا يدري ، ولكنه

كان شاعرًا بوطأة الداء في جسمه ، فانه لم يتخلف عن المشاركة بالقسوية مع الجمهور في الكنيسة الى اربعة ايام قبل وفاته . وانه ، اذ كان عائدًا من الكنيسة ، خانته قواه ، فارتمى بعجز الداء والشيخوخة فحُمل الى فراشه . ولما عاده الاطباء ادركوا انه كان يمشي الى الصلاة في تلك المدة الاخيرة بقوّة ارادته ومحبته لله لا بقوّة جسمه !

والغريب انه حافظ على الحياة المشتركة القانونية في جميع مدة بطريركيته كأنه كان راهباً قانونيًا مقيدًا بذلك القانون ، وكان مدفوعاً الى تلك الحياة المرتبة في نفسه وفي جمهوره لا بروح العادة ولا بميل الترتيب الفطري في الانسان ، بل بروح الفضيلة ، بروح الله تعالى لتقديس نفسه وتقديس من معه واعطاء المثل الصالح لجميع الاساقفة في اسقفياتهم ، ورؤساء الاديار في اديارهم ، والرهبان الذين تقيدوا بالقانون بقوة النذور الاحتفالية . وكل من عاش في الصرح البطريركي يعلم حقّ العلم ان البطريرك الحويك كان في محافظته على العيشة المشتركة افضل من راهب قانوني مدقق في المحافظة على نذوره وقانونه وفرائضه .

الرياضة الروحية

وما كان يعلّم تعليماً الا ويكون قد سبق ومارسه بنفسه واشرك معه فيه حاشيته واساقفة طائفته جميعهم . فكان يرسل المرسلين كل سنة الى جميع الرعايا في ابرشيته الواسعة للوعظ والانذار وتنبيه الشعب الى واجباته الروحية والتجدد بالحياة المقدسة . وكان يستحث مطارنة الابرشيات على العمل ذاته ، فيتهلل عندما يؤوب المرسلون ويجلسون امامه يقصون عليه اخبار رسالاتهم وما لاقوه من النجاح الروحي في الرياضات التي القوها على الشعب .

فهذا التعليم الخلاصي كان يزاوله بذاته اذ يجمع كل حول جميع اساقفة الطائفة المارونية ويختلي بهم ومحاشيته البطريركية في بكركي او في الديمان يتروّض فيه معهم بدعوة كاهن او اثنين من علماء كهنة الطائفة المارونية واماثلهم ، او من الآباء المرسلين اللبنانيين ، لالقاء مواعظ الرياضة عليه وعلى جمهوره . لهذا كان عندما يدعو الشعب الماروني الى الرياضة الروحية كان لدعوته

التأثير العملي اذ كان الشعب يرى رئيسه الاعلى يعمل ما يطلبه اسوة بيسوع «في جميع الامور التي عملها وعلّم بها»[1]

عبادته لقلب يسوع الاقدس

الحب لهيب في القلب لا يلبث ان يضرم ما حوله ويشعُّ بنوره فتمتد وتنتشر حرارته. وقد قيل، وحقّ ما قيل، ان الحب لا يختفي بل من طبعه الظهور والفيضان. فتلك المحبة التي كانت تتأجج في صدر الحويّك لله ولابنه مخلص العالم يسوع كان لا بُدَّ لها من ان تبرز الى الخارج باشكالها الحسية الممكنة. وقد بدت في محبته لقلب يسوع الاقدس، القلب الالهي والانساني، فكان من بواكير اعماله، فور ارتقائه الى السدة البطريركية، انه اذاع منشوراً في ٤ آب سنة ١٨٩٩ كرّس به الطائفة المارونية جمعاء لقلب يسوع الاقدس مقتفياً بذلك آثار وليّ نعمته امام الاحبار، البابا لاون الثالث عشر، ملبياً اشارته المتفقة مع عواطف قلبه الكبير المضطرم بمحبة ابن الله، ودعا جميع افراد الطائفة ليكرّس كل واحد ذاته لهذا القلب الالهي بحفلات علنية تُقام في كنائس الطائفة قد وضع لها شروطاً استعدادية تقوية رشيدة.

وما فتئ جميع ادوار بطريركيته يحرّض الشعب الماروني على التعبد لقلب يسوع الاقدس بتنشيطه الذين كانوا يعنون بنشر عبادة هذا القلب الالهي بواسطة الاخويات، ونشر كتب العبادة والصور، وما اشبه. فكان يجيز طبع ما يتعلق بالعبادة للقلب الالهي بكل ارتياح، ويشع وجهه بالابتهاج والمسرة عندما يبلغه انشاء اخوية جديدة لقلب يسوع في الرعايا او في الاديار. وامر ان يُحتفى بشهر حزيران، المخصص لعبادة قلب يسوع الالهي، في الكرسي البطريركي ذاته وكان يحضر الحفلة في الكنيسة كل مساء بنفسه ليعطي بذاته المثل الصالح لجميع ابنائه.

بعد ان وضعت الحرب الكونية اوزارها، ذهب البطريرك الحويك الى فرنسة مفوّضاً من قبل جميع ابناء لبنان، فطالب باستقلال البلاد لدى مؤتمر

١) اعمال الرسل ١ : ١

السلام برعاية الدولة الافرنسية. ثم آب الى لبنان مؤيّداً حاملاً صك استقلاله. فاستقبله اللبنانيون على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم بمهرجان عظيم نادر النظير كما سبقوا وشيّعوه شاكرين نشاطه ومقدرته ناسبين اليه الفوز في تحقيق امانيهم. اما هو فاعلن بمنشور مؤرخ في ٨ ك١ سنة ١٩٢٠ انه اتكل، في سفره الى مؤتمر السلام للمطالبة بحقوق اللبنانيين، على قلب يسوع، وان هذا القلب الالهي قد استجابه واناله امنيّته وامنية البلاد. لهذا يكرّس له الطائفة المارونية مجدّداً، وقرّر ان يقيم له تمثالاً في لبنان تخليداً لنعمته الالهية بنيل الاستقلال. ولكي يكون تمثال القلب الالهي للطائفة المارونية وللبلاد داعياً الى الاقتداء به بالمعيشة المقدسة الكاملة ليتمجد الله بهذا الجبل وبابنائه. ثم جمت التبرعات في لبنان والمهجر تلبيـة لنداء الشيخ ولكن البطريرك توفي قبل القيام بالاثر الخالد. اما المال فمحفوظ للشروع بالعمل وسيكون هذا الاثر من آثار محبة الحويك لقلب يسوع الاقدس. ويحسن بنا هنا ان نردّد عبارة البطريرك العظيم في ذلك المنشور النفيس قال مخاطباً الشعب الماروني وابناء لبنان: «لا تخفيكم ايها الابناء الاعزاء، اننا لما عوّلنا على السفر الى اوربة في اواسط تموز من العام الماضي لندافع ما استطعنا عن حقوق لبنان هالتنا الامر وشعرنا بصعوبة المهمة الخطيرة التي القيتموها على عاتقنا الضعيف لما كان من تعاكس النيات وتشاكس السياسات حول مسألتنا ولكي نستنهض همتنا رفعنا بنظرنا الى القلب الالهي الحنون قلب يسوع الاقدس ملجأ المبؤوسين وملاذ الملهوفين وابتهلنا اليه بكل حرارة قلبنا ان يسهّل طرقنا ويحظينا لدى عظماء الارض بما حاولنا التمسه باسم اهل وطننا.

«وبما ان القلب الالهي لم يشأ ان يكون التجاؤنا اليه عبثاً بل اراد رحمة بنا ومكافأة لتقوى اجدادنا ان يحقق امانينا وينيلنا بغيتنا فقد اقتضى من باب معرفة الجميل ان نكرس للقلب الاقدس طائفتنا التي اشتهرت وامتازت بتمسكها بعرى الدين القويم وان نجعل لبنان واهله تحت كنفه الخاص وحماه السامي. وقد ارتأينا تخليداً لذكر هذا العمل التقوي ان نقيم أثراً يعلوه تمثال القلب الالهي ويشترك جميعكم في نفقاته كل حسب امكانه ويكون لبنيكم وبني بنيكم من بعدكم ما كان لبني اسرائيل الاثنا عشر حجراً التي ركزها يشوع

ابن نون بعد عبره الاردن اي تذكرة لهم بعظائم الربّ فيتقونه كل الايام.»

عبادته لمريم العذراء

متى تفتّحت الاكمام بدت الازهار للعيون بالوانها الساحرة ، واجتذبت الانوف بشذا عطورها . فهذه العطور وتلك الزهور لو ظلّت في الاكمام مستورة لما درى بها احد غير انها ما كانت في جوهرها اقل قيمة وحقيقة . والتقوى الفردية تبقى مخفية ولا يذيعها الانسان الا اذا كان رجلاً عموميًا ، او اذا عمل اعمالاً عمومية والاعمال هي التي تنمّ عما في باطن الانسان . فتعبد البطريرك اللبناني للعذراء في طفوليته وحداثته وكهنوته واسقفيته كان مخفيًا في كمّ التواضع والعيشة المنفردة ، فجاء ارتقاؤه الى البطريركية ناشرًا لتلك الفضيلة ففاح اريجها وطيّب الارجاء اللبنانية بل جميع الارجاء التي انتهى اليها صوت شيخ لبنان.

في ٧ ايلول سنة ١٩٠٣ ، ارسل منشوره السادس الى الطائفة المارونية وجعله بمثابة دستور للموارنة يقتادهم العمل به الى الخلاص الابدي واوجب العبادة لمريم بما انها امّ الله وامّ الجميع ، وسار على خطوات البابا لاون الثالث عشر مكرساً للعذراء شهر تشرين الاول لتكريم سيدة الوردية بتلاوة ثلث المسبحة في الكنيسة او في البيوت ، واعطاء البركة بايقونة العذراء ، وامر ان يُحتفى الاحتفاء الشائق بتذكار العيد الخمسيني لاثبات عقيدة الحبل بلا دنس.

اما هو فلم يكتفِ لنفسه وحاشيته البطريركية بان يخصص باكرام البتول سيدة الوردية شهر تشرين الاول ، بل جعل كل ايام السنة وكل حياته البطريركية شهر تشرين اذ كان يشترك كل مساء مع جمهوره بتلاوة مسبحة الوردية وباعطاء البركة بايقونتها ، ثم تصعد لها الاناشيد بنغمات شمامسته الرخيمة الشجية فتمتزج مع روائح البخور ودخانه وتضيع مع انفاس البطريرك القدسية الخارجة من صدر مضطرم بمحبة البتول صاعدة الى السماء الى عرش سلطانة السماء والارض !

الى البتول كان يفزع في ملمّاته وملمّات الطائفة والبلاد. ففي بدء الحرب العالمية قد اصدر منشورًا الى الطائفة حرّض به ابناءه على الالتجاء الى هذه الام الحنون واوجب تلاوة ثلث ورديتها وزياح ايقونتها في الكنائس طول

سيدة لبنان

مدة الحرب. وما ان انتهت حتى اصدر منشوره في ٨ كانون الاول ١٩١٨ شاكرًا الله على نهايتها ناسبًا نجاة البقية الباقية في لبنان الى عناية امنا مريم العذراء، حاثًا الجميع على زيادة التعبد لها بالاكرام الحقيقي على مثال اجدادنا.

وقد نسب اندحار الترك وتقلص ظلهم عن البلاد في شهر تشرين الاول سنة ١٩١٨ دون ان يتمكنوا من العيث بالبلاد فسادًا وخرابًا، الى شفاعة العذراء اسوةً بما نالته اوربة على يدها في ٧ تشرين الاول ذاته سنة ١٥٧١ من دحر الترك واغراق عمارتهم في ليانته.

ولمَّا امَّ باريس للمثول امام اساطين السياسة في مؤتمر السلام، عرَّج على رومية، والتففتُ مع من التفَّ حوله من الجالية المارونية، واخذنا نسأله عن البلاد وعما يتوقعه في باريس لمهمته من النجاح. ففتح عينيه الكبيرتين ونظر الى السماء وقال بصوت سُمعت به نبرات ايمانه الحيّ بالله وثقته التي لا تتزعزع بالعذراء: «يا اولادي لا استطيع ان اتكل على رجال السياسة ولا على وعودهم فالسياسة لا دين لها فهي التي ضحَّت الملايين في مجازر الحرب ايتفق رجالها بما فيه مصلحة شعبنا ونحن اقلية ضئيلة غريبة عنهم وهم لم يشفقوا على ابنائهم؟! انا متكل على الله وعلى هذه المسبحة، واشار الى مسبحة العذراء وهي بيده، فصاحوا معي لان قوة العذراء مريم فوق كل قوة بشرية بما انها ام الله والله لا يرفض لامه طلبًا وهي لا تخيب طالبًا!» لهذا نسب اليها الفوز عندما عاد من باريس واذاع منشوره الصادر في ٨ ك ١ سنة ١٩٢٠ السابق الذكر.

لاجل هذا كان يلتجئ الى العذراء عند انحباس الغيث، وعند هجوم الجراد، وعند اشتداد المحن، وعند نزول الملمّات، وكان يخاطبها ويسألها مخاطبة الابن البارّ لامه الحنون بدالّة لم نرَ لها مثيلًا بين الابن وبين والدته الطبيعية بحسب الجسد وقد اراد ان يكون لها في كل قرية من لبنان كنيسة على اسمها، وفي كل كنيسة مذبحٌ، وان تكون ايقونتها في كل بيت وعلى كل صدر. وان يكون اسمها على كل شفة، وعلى كل لسان. وما اكثر ما شُيّد من الكنائس في ايامه وبامره وتنشيطه على اسمها. وكان السبّاق الى اكرامها اكرامًا جهوريًا اذ شاد لها بالاشتراك مع ممثل الكرسي الرسولي الاثر الخالد

في حريصا ، ذلك الاثر الذي اصبح مزارًا لجميع الطوائف الكاثوليكية في هذه البلاد يزورونه كل عام ، ولاسيما في شهر ايار المبارك يحملون اليها زهور نفوسهم وفضائلهم وزهور الطبيعة في الربيع الزاهي . ومن الحلو على القلوب انه ما زار احد تمثال العذراء في حريصا الا عرّج في رجوعه على بكركي لزيارة البطريرك اللبناني كأنه جاء يشكره على اهتمامه بهـذا الاثر او كأن البطريرك اللبناني رابطة خصوصيـة بالعذراء . وقد كان البطريرك يتقبـل الجماهير الزائرين بعاطفة محبة وانعطاف كأنه رئيس تشريفات البلاط الملوكي عند العذراء المجيدة. وكأن بكركي هي بلاط تلك السلطانة ! ان ابناء لبنان يذكرون ذلك منذ اقامة الاثر في حريصا الى رقاد البطريرك الاخير .

تشييد الكنائس والاديار في بطريركيته

لم يكن مغالياً خطيب امريكا الجنوبية المفوّه ، المطران ميشيل ده اندرايا، عندما رثى البطريرك اللبناني في كاتدرائية بونس ايرس يوم ٩ آذار سنة ١٩٣٢ اذ قال عنه : « فعمله كبطريرك انطاكية وسائر المشرق قد جاء كبيرًا متنوّعاً ومخصباً . ففي النظام الديني نراه قد شيَّد ١٨ ديرًا و٢٢ كنيسة »[1] فالحقيقة كذلك اذا ما قصرنا النظر على ما شيَّده في الابرشية والبلاد الخاضعة لولايته رأساً . واما اذا نظرنا الى ولايته على الطائفة فالانشاآت الدينية هي اضعاف الاضعاف .

ان الشعراء والخطباء عندما كانوا يتفنون بمآثر البطريرك في حياتـه كانوا يقتصرون على ذكر تشييده لقصر الديمان ، وتجديده لمدرسة رومية ، ومركز الطائفة المارونية في القدس ، مع ان الكنائس والمعابد والاديار التي تجدَّدت او تشيَّدت في ابرشيته البطريركية وفي الطائفـة في لبنان او في المهجر بامره او بتنشيطه او بايعازه او بمثله لعديدة . فلم يأتِ عصر من العصور تجدَّد فيه في الطائفة المارونية من الكنائس والاديار والمعابد ما يشابه عصر البطريرك الحويك . ولاسيما من حيث الهندسة والفخامة والعظمة اللائقة بخدمة الجلال الالهي . فلم يكن للمهاجرين قبله كنيسة ولا معبد في ديار الغربة . اما اليوم فقـد اصبح

---

(١) مجلة المنارة : السنة الثالثة ، العدد الرابع ، في اول نيسان سنة ١٩٣٢ ، صفحة ٣١٤

المهاجرون الموارنة يفاخرون المتخلفين بعدد كنائسهم، وكلها من الطراز الهندسي الحديث تحفة في الفن والذوق. ولم تكن عنايته بتجديد بيوت الله بشكل تظهر فيه عظمة الهندسة والفن الا ليكون مظهر العبادة الخارجية الواجبة على الانسان نحو خالقه لائقاً بالله جلّ جلاله. وكان يأبى ان يكون بيت الله احقر من بيوت الناس. بل كان يريد ان يكون هيكل الرب متميزاً عن جميع منازل الناس مرتفعاً عنها وعن قصور عظماء الارض بسذاجته وعظمته ارتفاع الله عن مخلوقاته بالعظمة والكرامة!

فالذي يرى كنائس كفرصقاب، والطاقورة، وبجه، وبقاعكفره، واهمج، واديار راهبات العائلة المقدسة المارونيات في عبرين، والبترون، وبيروت، يفهم كم كانت محبته لله تتجلى في بنيان الهياكل وتشييد المعابد والاديار حيث ينصرف الناس الى عبادة الله واكرام اوليائه. ويعلم من اي طراز هي بقية الانشاآت الدينية التي تمت في ابرشية البطريرك والطائفة في ايامه.

موقف البطريرك تجاه الاولياء

من كان كله لله لا يفرح الا متى رأى الناس كلهم مثله لله قلباً وقالباً. ومن كان اباً لعائلة، او رئيساً لطائفة، او سيداً لبلاد، يعتقد ان من واجباته ان يقدس مرؤوسيه ويكنائهم بكمالات الله؛ فيبذل في هذا السبيل كل قواه وتتهج روحه بالله وينطلق لسانه بشكره عندما تتحقق آماله بنيه ويراهم في اعلى درجات سلّم القداسة فيأخذ في اكرامهم وتعظيمهم ليشفعوا به وباخوانهم، ولكي يتخذ ابناؤه الاحياء من اكرامه هذا لاولياء الله مثالاً ينشّطهم الى الاقتداء بهم فتصير تلك البقعة بقعة القديسين، وتنتقل السماء الى الارض او تصير الارض سماء!

كان شعار البطريرك الحويك وتعليمه بمثله في حياته الطويلة، وفي بطريركيته الغنية بجلائل الاعمال الآية الانجيلية السامية المعاني: «كونوا كاملين كما انّ اباكم السماوي هو كامل!»[1]

---

١) متى ٥: ٤٨

فهو عاش كاملاً في جميع ادوار حياته ، ومات كاملاً ، على قدر ما يستطيع الضعف البشري ان يبلغ من الكمال الانجيلي . وكان في كل ايامه يكرم اولياء الله لقداستهم المشابهة لقداسة الله كأنها ظلها على الارض وقد اراد ان يفهم ابناء طائفته ان كل شيء يسمون وراءه اذا لم يكن واسطة لبلوغ القداسة فهو باطل لان كل اكرام يزول ولا يحق الاكرام الدائم الا للفضيلة المسيحية المقرونة بالبطولة التي يكون اصلها من الله ، وغايتها الله ، وكلها لله .

فتش في سير القديسين الشرقيين فوجد السنكسار حافلاً باخبارهم من صدر النصرانية الى القرن العاشر ، حيث طوي السفر ولم يعد يذكر للشرق قديس ، كأن السماء أغلقت في وجوههم ، مع انه رأى ان حياة الموارنة في شقوق الارض وفي المناور في هذا الجبل ملتحفين بالفقر والبؤس والسذاجة لاجل تمسكهم بعقيدة الايمان بالمسيح وبرومية هي عين القداسة . ورأى ان الوادي الذي قطنه سلفاؤه البطاركة والنساك والحبساء في قنوبين ، عند سفح الارز ، قد دُعي وادي قاديشا اي وادي القديسين . فاراد ان يستعيد مجد الكنيسة الشرقية الاول ، ويملأ صفحات السنكسار الروماني بسير ابناء طائفته ليفتح لهم الطريق مجدداً الى الارتقاء فوق المذابح ، بحياة مقدسة منزهة عن كل عيب ولوم ، غنية بالفضائل السامية وببطولة رجال الله فابتدأ بمعاونة ابنه الروحي ، بل اعز ابنائه ، الاباتي اغناطيوس التنوري ، عهد كان رئيساً عاماً على الرهبانية اللبنانية ، بحدث جديد في تاريخ الطائفة والشرق الا وهو حدث تثبيت القديسين من الموارنة تثبيتاً قانونياً .

وبأمر منه تألفت لجنة خصيصة لهذا الغرض كان لي الحظ ان اكون من اعضائها ، فباشرت اعمالها رسمياً في المقر البطريركي في بكركي يوم ٤ آذار سنة ١٩٢٦ ، اذ حلفت اليمين بين يديه بحضرة اساقفته وسائر حاشيته الكريمة ، وحلف هو ايضاً يمين الامانة المفروضة في مثل هذه الحال من الكرسي الرسولي ويوشر الفحص الاخباري عن شهرة قداسة ثلاثة من عبيد الله الموارنة وعن فضائلهم وعجائبهم وهم الاب نعمة الله كسّاب الحرديني ، والاب شربل مخلوف بقاعكفره ، والراهبة رفقا الريس من حملايا (بكفيا) . وكلهم من ابناء

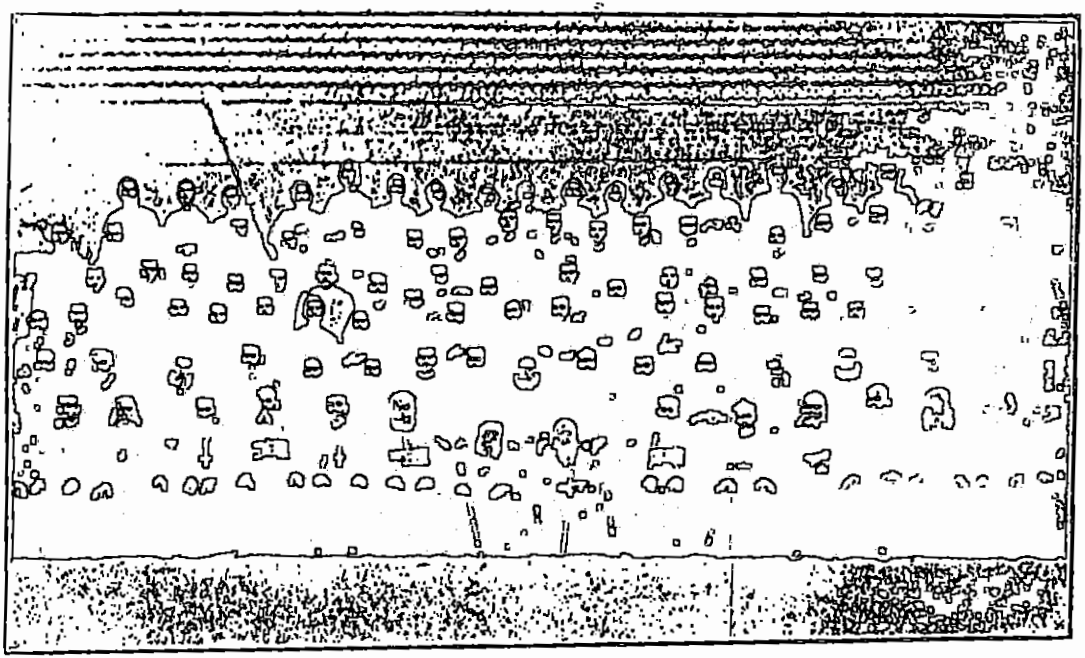

في دير سيدة المعونات

الهيئة الحافلة التي خُتمت في حضورها التحقيقات القانونية بخصوص عبيدالله نعمة الله الحرديني وشربل بقاع كفرا والراهبة رفقا الريس في ٢٠ حزيران ١٩٢٨

الرهبانية اللبنانية المارونية[1] . وكان يراقب بذاته اعمال هذه اللجنة ، ويسهل لها الطرق ولا يعلم الا الله كم بلغ اغتباطه يوم ختمت اللجنة اعمالها بحفلة حافلة في دير سيدة المعونات ، مركز الرئاسة العامة للرهبانية اللبنانية في جبيل ، بحضور نيافة القاصد الرسولي السيد فريديانو جيانيني السامي الاحترام ، وستة من اساقفة الطائفة المارونية ، ومتروبوليت بيروت وجبيل على الروم الكاثوليك ، ورؤساء عام الرهبانيات المارونية الثلاث ، ورهط عظيم من الرهبان والوجهاء في البلاد[2] وذلك في ٢٠ حزيران سنة ١٩٢٨ .

ولمّا رُفعت الاوراق بعد الجلسة الى قداسة الحبر الاعظم اشفعها بتوصية منه ما كتب اجمل منها ولا الحّ في حياته بطلب كما الحّ على قداسته في تلك التوصية ملتمساً الانعطاف والاسراع في هذه الدعوى لتتزيّن الطائفة وترى على المذابح القداسة مكرّمة باشخاص ابنائها اولئك الثلاثة .

فكان عمله صفحة مجيدة خالدة جديدة في تاريخ الشرق يبقى تاجاً لجبينه وهالة سماوية لا تفارق ذكره ، وستوضع على مفرقه يوم يُرفع هو بدوره ، ان شاء الله ، للاكرام على المذابح لاجل قداسة سيرته وسموّ فضائله .

في اثناء السير في تلك الدعوى الجديدة ، اي سنة ١٩٢٦ ، حدث حادث خطير في الشرق المسيحي وهو ان الرهبانية الفرنسيسكانية كانت تسعى ، منذ حوادث سنة ١٨٦٠ المشئومة في دمشق ، لتطويب ابنائها الثانية الذين سقطوا شهداء ايمانهم في عاصمة الامويين وكان قد تقرر ان قداسة البابا عزم على اعلان هؤلاء الثانية طوباريين .

وكان البطريرك الحويك ملتئماً مع اساقفته في الرياضة الروحية السنوية

---

١) ان هذه اللجنة كانت مؤلفة من المرحوم المحوري اسقف يوحنا كبراس ، بصفة رئيس ، ومن المحوري اسقف يوسف داغر ، والمحوري نعمة الله الفدوم ، بصفة قاضيين معاونين ؛ والمحوري منصور عواد بصفة محامي الايمان ، والمحوري الياس ضو بصفة مسجّل ، والاب اغناطيوس الحدتوني بصفة مباشر ، ثم تعين المرحوم المأسوف عليه المحوري بطرس غالب العلّامة العامل المتفرّد بين الكهنة علماً وفضيلة وحصافة ترجماناً ، والاب يوسف عارج ناسخاً .

٢) راجع « صفحة مجيدة في تاريخ الدين في الشرق » المطبوعة في المطبعة الكاثوليكية للاباء اليسوعيين سنة ١٩٢٨ .

في بكركي بعد عيد الفصح . فارتأى ان يلتمس من قداسة البابا بيوس الحادي عشر ان يتنازل ويعلن الموارنة الثلاثة رفقاء الآباء الفرنسيسكانيين في دمشق في الاستشهاد طوباويين ايضاً ، ووضع استفاتة بهذا المعنى وشاركه فيها اساقفته وارفقها بمثل البابا المحبوب في بلادنا برجاء منه. فما بلغت الاستفاتة الى مسامع خليفة القديس بطرس ونائب السيد المسيح على الارض ، قداسة البابا بيوس الحادي عشر ، حتى تنازل واستجاب الرجاء. واوفد السيد كارلو سالوتي الى دمشق خصيصاً للفحص ، واسعدني الحظ فكنت ترجمانه في كل ذلك. وفي ١٠ تشرين الاول سنة ١٩٢٦ اعلن قداسة البابا فرنسيس مسابكي وشقيقيه عبد المعطي ورافائيل من ابناء الطائفة المارونية الطلعتيين ، شهداء الايمان ، طوباويين . وتقدم قداسته في بدء الجميع وقدّم لهم في كنيسة القديس بطرس الملوكية في رومية الاكرام. وعلى مثله سار العالم الكاثوليكي وراءه في تكريمهم. فاصدر البطريرك الحويك في ٢١ كانون الاول من تلك السنة ذاتها ١٩٢٦ منشوره الثالث في شهداء دمشق الموارنة. فافاض فيه قلبه الابوي وقرئت في كل سطر من سطوره عواطف التعزية والبهجة كأن غبطته كان يشارك ابناءه اولئك الثلاثة ، مع سائر القديسين الذين تقدمونا الى السماء من هذه البقعة المباركة والطائفة العزيزة ، في مجدهم ولا غرو فايمانه بالله وبسمائه كان متيناً فكان ينظر الى الامور المرجوّة كأنها حاضرة امام عينيه . وقد دعى ذلك الحدث الخطير تعزية روحية للطائفة وللشرق أجمع ، وتوقع من ورائه للاثنين مستقبلاً سعيداً ونادى على رؤوس الملأ بان حصون الطائفة المارونية هم شهداؤها وقديسوها . وقد تناسى غبطته صرّح بذلك انه يوجد دول ذات حول وطول في البر والبحر، وحقه ان يتناسى لانه كان شاهداً بطول حياته لاعظم الانقلابات البشرية واضمحلال سلطنات وامبراطوريات وممالك ذات قوى هائلة ما كان يحلم الناس بسرعة زوالها واضمحلالها كما شاهد هو ذلك بنفسه.

اجل ان الدول العظيمة تلاشت سريعاً والشهداء والقديسين برزوا بمجدهم الخالد على انقاضها وانتصروا عليها ، فحق له ان ينادي بان حصون الطائفة هم قديسوها وشهداؤها.

وفي الفقرة الآتية التي ننقلها من ذلك المنشور الدائم الذكر صورة حية لنفس البطريرك ولمواطفه كلها ومختصراً لبرنامج حياته العملية ولغايته منها قال : [1]

« فحق لنا ولكم اذاً ان نفتخر بهذا اليوم العظيم ونخصه بسفر جليل في صفحات تاريخنا اذ نرى فيه باعين الايمان جوقة من قديسي طائفتنا وقديساتها وقد زاد عددهم الآن بشهدائنا الدمشقيين تحتمي بهم الطائفة كحصون منيعة فلا يعتريها خوف ولا يتولاها قنوط ولا تهاب بطوارئ الحدثان والاضطرابات لانها على يقين من ان دماء شهدائنا كما قال ترتليانوس هي « بذار لذرية مسيحية صالحة » ولانها على ثقة من وعود الفادي الصادقة القائل « لا تخف ايها القطيع الصغير لقد سُرَّ ابوكم ان يعطيكم الملكوت » [2]

وقد اراد ان يقنع ابناء الطائفة والبلاد بمثل فرنسيس مابكي ، رب العائلة الوجيه الفني القديس ، بان الانسان ، مهما كان مقامه ومهما كانت منزلته في الهيئة الاجتماعية ، يمكنه ان يوفق بين الدين والدنيا ، وانه لا شيء في هذه الدنيا يفتننا عن القداسة او يحول بيننا وبينها !

وقد رأينا ذلك البطريرك العظيم في جميع حياته يحب من الاحياء من كانوا اقرب الناس الى القديسين ويقرب الاتقياء ولا يفرح الا باخبار ذوي الفضيلة . فاليهم كان يرتاح في حياته ويستسلم في اعماله ولا ينفر الا من الخطيئة . ولا غرو فقد كان كل قصده ان يصل الى الله وان يوصل معه الذين عهدت اليه العناية الالهية بتدبيرهم .

بطريرك العناية الالهية

نبخس البطريرك اللبناني حقه اذا لم نذكر شيئاً عن تمسكه بعناية الله ، ونبخسه حقه اذا شئنا وصف اتكاله على العناية الالهية لان ذلك فوق الوصف .

---

١) راجع في مناشير البطريرك الحويك «الذخائر السنية» المطبوعة في مطبعة الاباء المرسلين اللبنانيين في جونية ١٩٣١

٢) لوقا ١٢ : ٣٢

حسبنا ان نقول انه كان عائشاً في جميع احواله وايامه كأنه يرى الله وجهاً لوجه . وكان يتغنى بعناية الله ، ويخبر الناس ولاسيما في اواخر ايامه ، وخاصةً عند نزول الملمّات واشتداد الازمات والاحوال عليه وعلى الفازعين اليه ، عما حدث له في تجديد مدرسة رومية ، وفي تأسيس رهبانية راهبات العائلة المقدسة المارونيات . وضُرب المثل بهاتين الروايتين فكان يقصهما على كل جليس مرات كلما جاء اليه جليسه يتشكى من امر او يتذمّر من حاكم ، او يئنّ من ملمة !

وكانت العناية ترافقه وتأخذ بيده وتبلغ به الى نجاح ما توقعه له احد من الناس ولا انتظره هو لنفسه لذلك فانه دائماً يردّد بصوت متهدّج : « نشكر الله ! نشكر الله ! الله يدبّر ! »

ولم يغلط ابناء عصره اذا كانوا اسموه بطريرك العناية الالهية ورجل العناية الالهية . فقد كان كذلك وما فاز به في الدين والدنيا لم يكن من تقدير رجل ولا بقوة انسان بل « من عند الرب كان ذلك وهو عجيب في اعيننا »[1] لان الله الذي يعنى بزهور الحقل ، وبطير السماء ، ويشرق شمسه على الاشرار كما يشرقها على الصالحين ويسكب غيثه على الفجار كما يسكبه على الابرار أتراه يهمل من احبه بالقول والفكر والفعل منذ ابصر النور في حلتا الى ان اغمض عينيه في بكركي ؟ ! كلا . بل قد ارسل ملاكه امام وجهه طول ايام حياته فما عثرت بحجر رجلاه ولا زلّ لسانه . جاء الى العالم طفلاً بحكمة الشيوخ ، وفارق العالم شيخاً بسذاجة الاطفال ! وهكذا يكون ابناء الملكوت الذين يعيشون بعناية الله لله وحده عاملين كأن الله غير موجود ، وتاركين النتيجة كلها لله كأنهم غير موجودين . فتبارك موقف البطريرك اللبناني من ربّه كم كان شريفاً وتبارك الله في بطريركه القديس !

---

[1] متى ٢١ : ٤٢